

شهر رمضان واخلاص الصوم □



هذا شهر الصيام - رمضان - الذي اعتبره الرحمن الرحيم موسماً للطاعات تتكاثر فيه الأعمال الصالحات: (شَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) (البقرة/ 185). فقد اختصه □ من بين الشهور بهذه الميزة؛ فأزل فيه هذا الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ولقد حفظ المسلمون - على تعاقب الأجيال - لهذا الشهر حرمة وميزته، فأقبلوا يضاعفون فيه العمل الصالح، ويزدادون نشاطاً واجتهاداً في ليله ونهاره، في قيامه وصيامه، يستيقظون فيه كثيراً، وينامون قليلاً، يرصدون قدومه للترزود من صالح الأعمال والأخلاق حتى تكون مضاعفة الحسنات، حيث فضّل □ بعض الأيّام على بعض وفي قمة هذه الأيّام المفصلة شهر رمضان. وإذا كان الكتاب يعرف من عنوانه، فإن لفظ الصوم يومئ إلى عظيم معناه، الذي يحمله مبناه. إذ الصوم في اللغة: مطلق الإمساك عن أي عمل. حتى جاز أن يقال: صام عن الكلام. أي سكت وأمسك عن الحديث، وإلى هذا يشير قول □ - سبحانه - حكاية عن السيدة مريم: (إِنِّي نَذَرْتُ لِرَبِّي حَمَناً صَوْماً فَلَمَّ الْغُيُوبِ. فلم يخرج عن دائرة الإمساك والتوقف، وإنما أحيط بقيود خاصة أضفتها عليه طبيعة الصياغة الشرعية للغة، فقال الفقهاء: إن الصوم شرعاً هو الإمساك عن جميع المفطرات. لكن هل هذا هو الصوم مبنى ومعنى؟ لعننا نحن - المسلمين - حين نعود إلى أسس الإسلام الخمسة، نجدها قد أحكمت، فهي مترابطة، ومتفاعلة وهي سلسلة متعانقة الحلقات يشد بعضها بعضاً، تهدف إلى تربية المسلم على النقاء والصفاء في صلته با □ خالقه، وفي صلته بالمخلوقين أيلاً كان نوعهم أو جنسهم، وبهذا لا يكون المعنى الفقهي للصوم معبراً عما يجب أن يكون عليه وإنما لابد أن يضاف إليه كل عمل إيجابي محمود، وكل امتناع عما ينافي الخلق القويم، والصراط المستقيم، والسلوك الإنساني السليم، فلا بد للمسلم الصائم أن يحافظ على الصلاة في مواقيتها، وأن يتلو القرآن الذي بارك □ به شهر رمضان وأن تعقد المجالس لمدارسته والتفقه في أحكامه ومعانيه، اكتساباً لفضائله والتزاماً بحلاله، واجتناباً لحرامه، فلا كذب، ولا غش، ولا سباب، ولا تطفيفاً للكيل والميزان، ولا غيبة ولا نميمة، ولا أكلاً لأموال الناس بالباطل، ولا سخرية بمسلم ولا مسلمة، بل ولا بأي مخلوق □. وبالجملة فالصوم دعوة إلى أداء كل الواجبات، في العبادات والمعاملات، ورعاية لكافة حقوق المخلوقات والامتناع - كذلك - عن جميع المحرمات والشبهات. وهذا الصوم وسيلة إلى اعتياد الأعمال الصالحات، وإلى البعد عن سيئ العادات، وبالإخلاص فيه وأدائه كاملاً ينمحي من مجتمع المسلمين كل ما اعتادوه مما يخالف أحكام الإسلام من قول أو عمل، وهو وسيلة لتربية الوازع الديني لدى كل مسلم؛ ذلك لأن الصوم سر بين المسلم وربّه فلا يداخله الرياء، ومتى كان الوازع الديني ملاء قلب المسلم وقلب المسلمة استقام الناس على صراط □، هذا الوازع الذي يحث على الطاعة ويزع عن الفساد والعصيان هو مراقبة □ - سبحانه - واليقين بأنّه يعلم السر وأخفى، وذلك ما عبر عنه قول الرسول (ص): "اعبد □ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراه"

براك". ذلك ما يجب أن يسعى الصائم إلى تحقيقه وكسبه من صومها؛ حتى لا يشقى بالصوم وهو يظن أنَّهُ قد أدى فرضاً لازماً، وفهم أنَّهُ بمجرد امتناعه عن المفطرات الحسية قد صام؛ إذ بقدر ما تتقلص حقائق الصوم وأهدافه يتقلص الأجر، وتتفاوت النسب بينه وبين الوزر، وهذا المعنى يقرره قول الرسول (ص): "رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع.. ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر". إنَّ واقع الحال أنَّ أكثر المسلمين لم يدركوا من معاني الصوم إلا أنَّهُ الإمساك عن الطعام والشراب والرفث إلى لحائل من النساء، وهذا القدر من معنى الصوم - في الحقيقة - واجب أساسي لكلِّ صوم، غير أنَّ الإسلام - وهو دين استهدف في فروضه وأدابه وأخلاقه تربية الإنسان مادياً ونفسياً وخلقياً - قد اعتبر الإمساك عن هذه الماديات والرغبات وسيلة لغاية، وبداية لنهاية، ومنطلقاً إلى عبادة أسمى وصوم أكمل وأجمل، لا يعني عنه الجوع ولا الكف عن الشهوات ساعات معدودات، تلك هي تقوى الله التي عبر عنها القرآن في نهاية آية الصوم بقوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 183)، وتلك غاية يسرها الله - سبحانه - في شريعة الإسلام التي أمرت بما يستطاع من أعمال الخير، واجتناب كلِّ الشر، فقاعدة هذه الشريعة في قضية التكليف تقضي بأنَّ ارتكاب الشرور بأنواعها المختلفة حرام على المكلف، أما أوامر الله ورسوله، فيكون لزوم أدائها في نطاق القدرة الذاتية لكلِّ مكلف، يدل لهذا قول الله سبحانه وتعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا) (التغابن/ 16). وقول الله سبحانه: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا لَمْ يُعْتَدِينَ) (الأنعام/ 119). ولقد بيَّن رسول الله (ص) هذه القاعدة وأكد حقيقتها في قوله: "إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه". فلنستقبل شهر رمضان بإخلاص الصوم لله، وأن نصوم عن المفطرات وعن السوءات والسيئات، وأن نكتسب بصومنا أحسن الأعراف والعادات. نسأل الله لأُمَّة الإسلام في هذا الشهر فلاحاً وصلاحاً وتغيراً إلى أحسن حال حتى تكون خير أُمَّة أخرجت للناس.